صورةُ الأقاربِ في شعرِ أُسامةَ بنِ منقذٍ

The image of relatives' poetry in the poetry of Osama bin Munqidh

ركان عبدالله أحمد الشياب [1]
Rakan Abdullah Al-Shayyab[1]

10.15849/ZJJHSS.250330.06

الملخص

تأتي هذهِ الدِّراسةُ لتتناولَ أحدَ أبرزِ الشُّعراءِ الأُمراءِ في الأدبِ العربيِّ الإسلاميّ في العصرِ الزّنكيّ والأيُّوبيّ، وهو الأميرُ الشّاعرُ أُسامةُ بنُ منقذٍ الّذي يعودُ أصلُهُ إلى أُمَراءِ إمارةِ آلِ منقذٍ الكلبيّين. حيثُ تناولَ البحثُ شعرَ الأقاربِ الّذي شكَّلَ نسبةً كبيرةً من قصائدِهِ؛ لأنَّ علاقةَ الشَّاعرِ بأقاربِهِ قد انعكستْ على معظمِ مسارِ حياتِهِ منذُ نفيهِم لهُ إلى أنْ قُتِلُوا في زلزالٍ كبيرٍ، فكانَ لنفيهِم نصيبٌ في شعرِهِ بمواضيعِ العتابِ والشّكوى والغضبِ والحنينِ. ومقتَلُهُم كانَ سببًا في أنْ يُنشِدَ الشّاعرُ عددًا منَ المراثي الّتي عكستْ حُبَّهُ لهم رغمَ ما سبَّبُوهُ لهُ منْ تغرُّبٍ وتقلُّبٍ في البلادِ، فكانَ أسامةُ بنُ منقذٍ في هذا الشّعرِ مثالًا لنموذجِ الفارسِ العربيّ الّذي يترفعُ عن هجاءِ قومِهِ، أو التّشمّتُ بهم.

الكلمات المفتاحية: أسامة، آل منقذ، شعر الأقارب، القيم، المواضيع الشعرية.

Abstract

This study deals with one of the most prominent princely poets in Arab-Islamic literature in the Zenki and Ayyubi eras, namely the prince poet Osama Ibn Munqid, whose origin goes back to the princes of the Al-Munqid Al-Kalbian emirate. The research dealt with the poetry of relatives, which formed a large percentage of his poems because the poet's relationship with his relatives was reflected on most of his life path since his exile until they were killed in a major earthquake. Their exile lasted until they were killed in a major earthquake, so their exile had a share in his poetry with themes of reproach, complaint, anger and nostalgia, and their death was a reason for the poet to sing a number of elegies that reflected his love for them despite the alienation and fluctuation in the country, so Osama bin Munqid in this poetry was an example of the model of the Arab knight who refrains from satirising his people or gloating about them.

Keywords: Osama, Al-Munqid, kinship poetry, values, poetic themes.

[1] وزارة التربية والتعليم، الأردن.
* للمراسلة: rakansheyab1@gmail.com
تاريخ استلام البحث: 2024/10/31
تاريخ قبول البحث: 20/01/2025

[1] Ministry of Education, Jordan.
*Corresponding author: rakansheyab1@gmail.com
Received: 31/10/2024
Accepted: 20/01/2025

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والإبتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2025

المقدمة

يعد أسامة بن منقذ من أبرز الشعراء الذين عاشوا خلال عصر آل زنكي وآل أيوب، وذلك لما مثله شعره من صدق العاطفة، وحرارة الشعور، فقد كان أميرا فارسا، وعلى رغم ذلك عاش حياة صعبة، متقلبة، جراء ما لقيه فيها، حيث اضطر لمغادرة شيزر جراء ضغط من عمه وأبناء عمومته، ثم ما عاشه من حنين لموطنه من أهم المواضيع الشعرية في قصائده، حيث ركز في الكثير منها على الشوق والعتاب على أقاربه.

وكانت حياته حافلة بالمصائب فذاق فراق أخوته وأبنائهم ممن نفوا عن شيزر، ثم ابتلاه الله بمقتل عدد كبير من قومه، ودمار مسقط رأسه شيزر بسبب زلزال كبير، وعلى الرغم من العداء الذي بينه وبينهم جراء نفيهم له إلا أن هذه الحادثة كانت مصابا جللا عليه، فرثاهم بالعديد من القصائد، عاكسا بذلك شخصية الأمير العربي المسلم الذي يحب قومه ويعتز بهم على الرغم من ظلمهم له.

أسئلة الدراسة

وقد اختار الباحث في هذا البحث دراسة شعر الأقارب ومواضيعه عند الأمير الشاعر أسامة بن منقذ، وذلك للإجابة عن عدد من الأسئلة الإشكالية:

ما المواضيع التي تناولها أسامة بن منقذ في شعر الأقارب؟

وهل كان للأحداث التي عاشها مع أقاربه أثر في ذلك؟

وهل انتقم منهم بشعره كأن يهجوهم أو يتشفى بمقتلهم؟

وهذه الأسئلة تدور حول إشكالية البحث، وهي شخصية أسامة بن منقذ الشاعرية إذا ما كانت حقا قد ارتبطت بقيم العروبة والفروسية الأصيلة، ومدى تأثيرها في مواضيع شعره وبخاصة في شعر الأقارب.

منهجية الدراسة

قامت هذه الدراسة على المنهج النقدي الأدبي التاريخي لأحداث عصر أسامة بن منقذ والتحليلي البنيوي لشعره.

أهداف الدراسة

جاءت هذه الدراسة لمعرفة مدى تأثير العصر الذي نشأ فيه أسامة بشكل عام، والبيئة التي تربى بها بشكل خاص في شعره، ثم دراسة شعر أسامة بن منقذ في تناوله لموضوع الأقارب، من ناحية صور هذا الموضوع في شعره، وبنائه الفني.

أقسام الدراسة

وقد قسمت هذه الدراسة إلى مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة، حيث تناولت في المبحث الأول عصر الشاعر، وفي الثاني التعريف بالشاعر، وفي الثالث صورة هذا الشعر.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والإبتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2025

أولًا: عصر أسامة بن منقذ

كانت الخلافة العباسية منذ أواخر القرن الثالث قد دب الضعف فيها، حيث فقدوا السيطرة على أجزاء واسعة من دولتهم، ففككت لدول صغيرة حكمت بشكل مستقل فعليا، وبقيت تابعة للخلافة بالاسم، وخضعوا لسلاطين دول البويهيين ثم السلاجقة، وظهر في مغرب الدولة الخلافة الفاطمية الشيعية، وتمكنت من السيطرة على مصر والشام، وأسسوا في مصر حكما امتد لأكثر من قرنين.[1]

وقد أخذوا يتصارعون مع الأمراء الداعمين للعباسيين وللمذهب السني على الشام والحجاز، ولم يكن الصراع عسكريا وحسب، وإنما أيضا على المستوى العقدي والديني، ولكنهم منذ أواخر النصف الأول من القرن الخامس الهجري سرعان ما دب الضعف في دولتهم وأخذوا يحاربون السلاجقة الأقوياء حينها، والداعمين للخلافة العباسية والمذهب السني، وأخذ التفكك يدب في العالم الإسلامي ويتسع، فنشأت إمارات إسلامية متعددة، تتقاتل فيما بينها بالتحالف مع السلاجقة أو الفاطميين، وتتقلب طبيعة تحالفاتها حسب مصالحها، وخلال هذا الصراع الذي وصل ذروته في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري أخذت عوامل الضعف تدب في دولتي السلاجقة والفاطميين، فبدأ بعض الأمراء والقادة في بعض المناطق بالاستقلال عن السلاجقة والفاطميين، وكانوا يحظون بدعم من هذا الطرف أو من ذاك حسب ظروفهم، ومن بين هؤلاء بني منقذ في شيزر، فزاد ذلك من التفكك، ولم ينته القرن حتى تعرضت بلاد الشام لحملات الصليبيين سنة 491هـ/ 1097م، وتمكنت من السيطرة على مناطق واسعة في شمال بلاد الشام وغربها بما فيها القدس سنة 492هـ/ 1098م، مستغلين ضعف العالم الإسلامي، فأسسوا هناك عدة إمارات صليبية بالإضافة إلى مملكة القدس.[2]

وقد ظهر بنو منقذ في هذه الظروف المعقدة، إذ سعوا إلى بناء تحالفات تتوافق مع مصالح إمارتهم، كما أخذوا يواجهون الأطماع الصليبية في إمارتهم التي تتميز بموقع استراتيجي مهم، فكانوا يحاربونهم أحيانا، وأحيانا يهادنونهم، وذلك بناء على علاقاتهم مع الإمارات الإسلامية الأخرى، وكذلك كان أمرهم مع الفاطميين والسلاجقة، وقد تم لهم ذلك في زمن ثاني أمرائهم نصر بن علي بن منقذ (475-532هـ/1082-1098م).[3]

وفي ذلك الوقت كان آل زنكي يمثلون قوة صاعدة، وقد تمكنوا من توحيد بلاد الشام ومصر وإنهاء خلافة الفاطميين، ورفعوا راية الجهاد ضد الصليبيين وانخرط بنو منقذ ومن بينهم أسامة في هذا الجهاد معهم كحلفاء وكتابعين، كما تمكنوا من مواجهة الصليبيين وصد أطماعهم في مدن الشام ومصر، والسيطرة على عدد من إماراتهم في الشام، ثم خلفهم الأيوبيون بقيادة صلاح الدين الذي قاد راية الجهاد ضد الصليبيين.[4]

---

[1] غانم، حامد زيدان، دراسات في تاريخ العالم الإسلامي في العصور الوسطى، المعهد العالي للدراسات الإسلامية، 2005م، ص200-203.

[2] غانم، دراسات في تاريخ العالم الإسلامي؛ المطوي، محمد العروسي، الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، ط2، ص16-19، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1982م، ص203-205.

[3] الشيخ، محمد محمد مرسي، الإمارات العربية في بلاد الشام في القرنين 11-12م، ط1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1980م، ص303-314.

[4] غانم، المصدر السابق، ص206-230.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والإبتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2025

ثانيًا: التعريف بأسامة بن منقذ

اسمه ونسبه وولادته:

هو الأمير مؤيد الدولة مجد الدين أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني الكلبي الشيزري، ولد في عام 488هـ/1095م بمدينة شيزر في قلعتها[1].

وفيها تلقى علومه الأولى وهو صبي، ثم سافر إلى مصر حيث استكمل دراسته هناك، كما عمل تحت لواء الفاطميين، لكنه انخرط بالصراعات بين القادة فيها، فتركها ورحل إلى الشام حيث استقر هناك[2]، ويقال إنه كان شيعيا[3] على مذهب الإمامية[4].

ينتمي أسامة بن منقذ إلى أسرة بني منقذ وهم من قبيلة كلب من قضاعة التي سكنت بلاد الشام وشمال شبه الجزيرة العربية منذ ما قبل الإسلام، وكان لها نفوذ كبير خلال العصر الأموي، كما كان لها قوة كبيرة في الشام، وكان لأسرته شهرة في العلم والأدب وقول الشعر، كما كان لهم دور مهم في قيادة قبيلتهم وحلفائها خلال الصراعات على الشام في القرنين الرابع والخامس الهجريين بين أنصار الخلافة العباسية، والفاطميين، وقد سيطرت أسرته على شيزر زمن جده علي بن مقلد سنة 468هـ/ 1076م، حيث نزلها بأهله وقبيلته، مؤسسا فيها إمارة إسلامية مستقلة، وتمكنت أسرته من حكم هذه المنطقة، حيث حموها من الحملات الصليبية، وتمكنوا من الحفاظ عليها بعيدا عن الصراعات السياسية بين السلاجقة والفاطميين عليها، حتى سنة 552هـ/1157م حيث تعرضت لزلزال شديد القوة قتل غالبية السكان وأنهى حكمهم[5].

---

[1] شيزر: مدينة وكورة في شمال بلاد الشام بالقرب من مدينة حماة والمعرة، بينها وبين حماة مسافة يوم واحد. الحموي، ياقوت بن عبد الله، معجم البلدان، تحقيق: إحسان عباس، ط3، ج3، دار صادر، بيروت، د. ت، ص383.

[2] الأصبهاني، عماد الدين محمد بن محمد، (1955م)، خريدة القصر في محاسن أهل العصر: قسم شعراء أهل الشام، تحقيق: شكري فيصل، ج1، ص498، الدار الهاشمية، دمشق؛ ابن عساكر، علي بن الحسن، (1995م)، تاريخ مدينة دمشق: وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل أو اجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها، تحقيق: عمر بن غرامة العمروي، ج8، ص90، دار الفكر، بيروت؛ ابن خلكان، شمس الدين أحمد بن محمد، (1996م)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، ج1، ص195، دار الصادر بيروت؛ الحموي، ياقوت بن عبد الله، (1993م)، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، تحقيق: إحسان عباس، ج2، ص571-572، دار الغرب الإسلامي، بيروت؛ الصفدي، خليل بن أيبك، (2000م)، الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، ج8، ص245، دار إحيار التراث العربي، بيروت.

[3] حول تشيع أسامة بن منقذ الذهبي، محمد بن أحمد، (2003م)، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: بشار عواد معروف، ج13، ص774-775، دار الغرب الإسلامي، بيروت؛ الذهبي، محمد بن أحمد، (1985م)، سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرون، ط3، ج21، ص166، دار الرسالة، بيروت.

[4] الإمامية: فرقة شيعية، وهي أكبر فرقهم، وتسمى أيضا بالاثنا عشرية، وتقول بإمامة ذرية محددة من ولد علي بن أبي طالب، من جهة ابنه الحسين، وصولا إلى إمامهم الثاني عشر محمد بن الحسن العسكري، والذي يقولون باختفائه بسامراء في سرداب، وإنه هو المهدي المنتظر، وسيخرج في آخر الزمان ليملأ الدنيا عدلا. الحفني، عبد المنعم، (1993م)، موسوعة الفرق والمذاهب والجماعات الإسلامية، ط1، ص66-68، دار الرشاد الإسلامية، القاهرة.

[5] الغامدي، مسفر بن سالم عريج، الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي قبل قيام الدول الأيوبية في مصر، ط1 ، دار المطبوعات الجديدة، جدة – السعودية، 1986م، ص92-99

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والإبتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2025

حياته وعلمه وعمله السياسي ووفاته:

اشتهرت أسرة بنو منقذ منذ ما قبل تأسيس إمارتهم بصفات كالعلم والأدب والرئاسة، كما عرفوا بالفروسية والشجاعة[1]، وكان والد أسامة مرشد رجلا فاضلا عالما[2]، كما كان متدينا مجاهدا للصليبيين، وناسخا للقرآن الكريم.[3]

وفي كنف هذه الأسرة نشأ أسامة بن منقذ، فبرز منذ صغره، وأخذ بتعلم العلوم الدينية من قرآن وسنة، وروى الحديث النبوي عن والده وعدد من الشيوخ والعلماء، وروى عنه جماعة من كبار علماء العصر، منهم، الحافظ ابن عساكر الدمشقي مؤرخ مدينة دمشق، والعالم السمعاني، والأديب الكاتب العماد الأصبهاني، وغيرهم.[4]

وكان له باع طويل في الأدب، إذ تميز بكتاباته النثرية، له العديد من المصنفات، من أهمها: الاعتبار، ولباب الآداب، والبديع في نقد الشعر، والمنازل والديار، والنوم والأحلام، والقلاع والحصون، وغيرها من المصنفات الجليلة، وكان يحفظ أكثر من 10 آلاف بيت شعر جاهلي، وهو نفسه كان شاعرا، جميل المعاني مبتكرا لها، وقد أعجبت قصائده أدباء عصره، ونقادهم، وله ديوان شعري، ويعد أسامة أشعر آل بيته وأكثرهم شهرة.[5]

ولم تكن هذه الصفات وحدها التي يمتلكها أسامة بن منقذ، فقد كان فارسا شجاعا، وتعجبه الفروسية حتى وإن كانت عند عدوه، على نحو إعجابه بفروسية فرسان الفرنجة[6]. وكان مقربا من عمه سلطان، ولكن يبدو أنه وبسبب فروسيته هذه كان أسامة قد أثار مخاوف عمه منه أكثر من باقي أخوته، فخرج من شيزر والتحق بعماد الدين زنكي، ثم عاد إليها برفقة زنكي لإنقاذها من الروم والفرنجة، وبقي فيها[7].

وشارك مع نور الدين زنكي في حروب مختلفة، وقد حظي هو وأسرته عنده بمكانة عظيمة، وأرسله نور الدين بسفارات مختلفة وبخاصة إلى بلاد الفرنجة، وارتبط بعلاقات صداقة مع أمراء وفرسان منهم، وفي سنة 552هـ/1157م حدث الزلزال الذي دمر مدينة أهله، وقد أفجعته هذه الحادثة وتألم لما حدث لعشيرته فيها، فرثاهم بالكثير من الأشعار، ولم تمض سنوات حتى اختار الاعتزال في حصن كيفا جهة الموصل سنة 560هـ/1165م، وبقي هناك لأكثر من عشر سنين، حيث اعتكف على القراءة والتأليف، وفي عام 570هـ/1174م استدعاه صلاح الدين مؤسس الدولة الأيوبية إلى دمشق، وكرمه، وبقي فيها إلى أن توفي سنة 584هـ/1188م عن عمر يناهز 96 عاما.[8]

---

(1) الأصفهاني، عماد الدين محمد بن محمد، خريدة القصر وجريدة العصر: قسم شعراء الشام، تحقيق: شكري فيصل، ج1، المطبعة الهاشمية، دمشق، 1955م، ص497.

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص 238.

(3) ابن منقذ، أسامة بن مرشد، الاعتبار، تحقيق: فيليب حتي، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، د.ت، ص53.

(4) ابن العديم، كمال الدين عمر بن أحمد، بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق: سهيل زكار، ج3، دار الفكر، دمشق، 1988م، ص1359.

(5) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج8، ص90–91؛ الأصبهاني، خريدة القصر، ج1، ص498 و500–501؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج1، ص 195–196؛ الزركلي، خير الدين، (2002م)، الأعلام، ط15، ج1، ص291، دار العلم للملايين، بيروت.

(6) ابن منقذ، الاعتبار، ص64.

(7) الآلوسي، جمال الدين، أسامة بن منقذ بطل الحروب الصليبية، مطبعة أسعد، بغداد، 1967م، ص30–32

(8) الآلوسي، أسامة بن منقذ، ص70–76.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والإبتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2025

لقد كان أسامة بن منقذ ابن أسرته وعصره، فقد كان من بيت علم وفروسية وإمارة، شاعرا أديبا، وفارسا شجاعا، أعجب به الخلفاء والملوك والأمراء، سواء أكانوا من المؤيدين للعباسيين كالزنكيين والأيوبيين، أم كانوا من أتباع الفاطميين، كما وارتبط بصداقات مع ملوك وأمراء وفرسان من الفرنجة، ما يعكس لنا شخصيته الجذابة والمتكاملة، ولم يمنع ذلك من أن يتعرض للحسد أو أن يكون مصدرا لإثارة الخوف، وذلك لما يمتلكه من صفات تؤهله لتولي الحكم، ويبدو أنه كان مدركا لذلك، فانخرط ببعض المغامرات السياسية في الشام ومصر كانت تدفعه للخروج عنها، على نحو ما حدث له على يد عمه الذي كان أول من تنبه لشخصية أسامة.

وعلى الرغم مما حدث له على يد عمه، إلا أن أسامة كان يحبه ويحب عشيرته، وكثيرا ما عاتبهم في شعره، وحارب عنهم دفاعا، ولما وصلته أخبارهم رثاهم بأشعاره، وبكاهم، وسيعالج الباحث مواضيع شعر الأقارب عند أسامة، وارتباط هذا الشعر بالأحداث التاريخية في عصره.

ثالثًا: شعر الأقارب ومواضيعه

يتأثر الشعر بروح العصر الذي يحيا فيه، ولم يكن العصر الذي عاش فيه أسامة بن منقذ مستثنى، فالتفكك وتردي الأوضاع الاقتصادية وتدهور العلاقات قد انعكست آثارها على العلاقات الاجتماعية، فانتشرت العديد من المفاسد الأخلاقية المجتمعية، التي جاء الشعر ليعبر عن أثرها فيه، أو ليصورها ويصفها، أو لينتقدها أيضا. وذلك ضمن السياق الاجتماعي للشعر، سواء من حيث الشكل اللغوي، أو من خلال وظيفته.[1]

إن مفهوم القرابة من حيث هو ارتباط بالنسب يستحضر ارتباطات اجتماعية واقتصادية وسياسية معينة، وهي التزامات ترتبط بشكل مختلف من حيث قوة حضورها في المجتمعات عبر تاريخ، وباختلاف نمط معيشتها: كمجتمعات بدوية ، ريفية، مدنية، أو من حيث مكانتها الاجتماعية، حيث تحضر هذه الالتزامات وتمتد لتضمن شمولها بشكل أبعد وأقوى ضمن خط النسب بين المجتمعات البدوية، وتنخفض قوته ومدى اتساعه بشكل ملحوظ في المجتمعات الريفية والمدنية على التوالي. وقد احتفظ مفهوم القرابة بقوته في المجتمعات الإنسانية بشكل عام، وخصوصا لدى المجتمعات الشرقية، على نحو العرب والأكراد والترك، وقد اعتبر الإسلام حفظ النسب بالإضافة إلى (الدين والعقل والمال والنفس) أحد الضرورات الخمس الواجب حفظهن.[2]

ومن الطبيعي أن يختل هذا المفهوم بدلالاته وبخاصة في مراحل الأزمات الاجتماعية، أو السياسية، سواء في المجتمع ككل أو ضمن طبقات وجماعات تتعرض لآثار الأزمات بشكل أكبر، وهو ما ينتج عنه مجموعة من السلوكيات، وبما أن شعر القرابة من أشكال الشعر الاجتماعي، فإنه يمثل العادات والتقاليد والسلوكيات في العلاقات الاجتماعية بين الأقارب.[3] كما أنه يعكس حالة الشاعر النفسية جراء تفاعله ضمن هذه العلاقات.

إن بنية هذه المجتمعات التي عاش فيها أسامة بن منقذ تتكون من هذه الشعوب الشرقية بأغلبيتها، وتعتنق الدين الإسلامي، وتحيا ضمن ثقافة عربية وإسلامية تدعو للإحسان للإنسان وبخاصة إن كان من ذوي القربى،

---

[1] سلام، محمد زغلول، الأدب في العصر الأيوبي، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1990م، ص321-323.

[2] حسام الدين، كريم زكي، اللغة والثقافة: دراسة أنثرولغوية لألفاظ وعلاقات القرابة في الثقافة العربية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2010م، ص152-159.

[3] الدليمي، نهى محمد، الحياة والموت في صدر الإسلام، دار الخليج، عمان، 2020م، ص130

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والإبتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2025

كما تتميز هذه المجتمعات بتقاليد تحفظ الأنساب وترعاها، وقد كانت أسرته كما رأينا أسرة حاكمة، عربية النسب، وإليها تنتهي رئاسة القبيلة، بالإضافة إلى ما تميزت به من صفات عربية أصيلة كالفروسية والشجاعة والكرم، وإسلامية من علم وأدب.

ولهذا فإن ما تعرض له أسامة بن منقذ، من إبعاد على يد عمه وبني عمه عن شيزر، وتعرض العديد من أهله للغربة عنه، ومقتل بعضهم، وأسر بعضهم، ثم ما حل بأهله وأقاربه من موت مفاجئ جراء الزلزال في شيزر، قد انعكس على شعره، حيث كان الأقارب كثيري الحضور في شعره، كما كان لآثار فقدانهم جراء الموت أو السفر أو الأسر أثر سلبي على حالته النفسية، فامتلأ شعره بإيقاع حزين، ومواضيع مثل الشكوى والغربة والحنين والرثاء وحتى الحب وقد عكست كلها مشاعر الحزن الذي عاشه أسامة بسببهم ولأجلهم على الرغم مما عاناه منهم.[1]

إن هذا الشعر يندفع تحديدا من نظام فكري منهجي ساد خلال العصور الوسطى، ومن بينها الثقافة الإسلامية هو نظام التقابل بين أطراف متناظرة على نحو : الصدق/ الكذب، الجميل/ القبيح، الخير/ الشر[2]، وهو ما سيتضح أكثر خلال المبحث التالي.

صورة شعر الأقارب في شعر أسامة بن منقذ

1. الصورة السلبية: الغضب/ الشكوى/ الرحيل.

تعبر الصورة السلبية عن مشاعر سلبية تعكس بلغة الشعر طبيعة العلاقات بين الأقارب، وقد تعبر عن مشاعر ومواضيع مختلفة، وتتراوح بين الغضب والشكوى، واتخاذ قرار بالابتعاد عنهم، وصولا إلى ذم فعالهم، وحتى هجائهم، على أن أسامة بن منقذ قد ترفع عن الموضوع الأخير، أي الهجاء، فديوانه خال منه، وخصوصا تجاه أقاربه من أبناء عمومته الذين أخرجوه هو وأخوته، وذلك لما يتحلى به من أخلاق الإمارة[3] وأيضا للتقاليد العربية في الشعر، فالهجاء لا يوجه للأقارب والقبيلة، إذ الشاعر أساسا هو لسان القبيلة والعشيرة، يذب عنها، ويرفع مفاخرها.[4] وأسامة بن منقذ بعلاقته بالعروبة والقبيلة، ومبادئ الفروسية العربية، لا يمكن أن ينخرط في فعل كهذا؛ إذ إنه سيجلب الذم لنفسه أيضا.

ولذلك فقد اتجهت تعابيره الشعرية نحو مواضيع أخرى عبر فيها عن علاقته مع أقاربه، وغضبه، وما تعرض له على أيديهم، مخيبين ظنه فيهم، وتظهر مشاعر الغضب هذه منذ خروجه الأول من شيزر في حياة أبيه، إذ أرسل لأبيه رسالة تضم قصيدة يعبر فيها عن هذا الغضب، فهو منذ البداية يطلب من أبيه أن لا يلزمه بالعودة إلى شيزر:

لا تُلْزمَني بالهـــــوان وحمـــلــهِ إن احتمالَ الهُونِ ثِقلٌ مرْهَقُ

---

[1] تريعة، أشواق، تجليات الحزن في شعر أسامة بن منقذ، رسالة ماجستير، جامعة بسكرة، الجزائر، 2018م، ص78

[2] مفتاح، محمد، مفاهيم موسعة لنظرية شعرية: اللغة – الموسيقى– الحركة، دار الفكر العربي، بيروت، 2010م، ص33–34

[3] بدوي، أحمد أحمد، أسامة بن منقذ وشعره، مجلة الرسالة، مصر، عدد 885، 1950، ص24

[4] حسين، محمد محمد، الهجاء والهجاءون في الجاهلية، مكتبة الآداب بالجماميز، القاهرة، 1947م، ص61.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والإبتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2025

دَعْني وقطعَ الأرضِ دونَ معاشرٍ كلّ علي لغير جُـرْمٍ مُحنَقُ[1]

تعد هذه الشكوى الغاضبة منذ بدايتها تطالب الأب بعدم ممارسة سلطته الإلزامية تجاه الابن، فإلزام الأب لابنه بالبقاء، وتحمل عمه وأولاده وما يجري له على أيديهم، قد شبهه الشاعر بصورة فنية توضح حقيقة سلوكهم تجاهه، وما يشعر به جراء هذا الشلوك، وهذه الصورة شبيهة بحمل الذل وثقله المرهق، وهو ما لا يتقبله الشاعر، ويفضل عليه لما عنده من كرامة وإباء مفارقة والده وأهله، والتغرب عن موطنه دون أن يكون له ذنب في حنقهم وتغيرهم عليه، ثم يبث شكواه لوالده جراء ما لقيه منهم قائلا:

تغلي عليّ صُدروُهم من غَيْظِهم فتكادُ من غيظٍ عليّ تـحــرَقُ
تعشَى إذا نظـروا إليّ عُيــونُهم حتى كأنّ الشّمْسَ دوني تُشْرِقُ
كَسَدَتْ عليّ بضائعي فيهم فـلا أدَبي ولا نَسَبي عليهم يَنْــفــقُ
أعْيا عليّ رضاهُمُ فيـنُسـتُ مِنْ إدراكهِ ما النّجمُ شيءٌ يـُلْحَـقُ[2]

يصف الشاعر في هذه الأبيات لأبيه بشكوى غاضبة ما يلقاه من أقاربه، من غيظ يحرق صدورًا، وذلك في وصفة شدة الغيظ الذي يحملونه تجاهه، والذي يظهر من خلال أعينهم التي يصفها أسامة بأنها (تَعْشَى) كلما نظرت إليه، وهذه الكلمة التي جاءت في صدر البيت قد وظفها الشاعر في قصيدته بطريقة ذكية، لما فيها من معان تكسبهم صفات سيئة وهي: التغافل والإعراض والتعامي عن رؤية الأشياء أو الميل عنها بشكل قصدي؛ ومعان تدل على الظلم والانتقاص.[3] جاعلا من نفسه النقيض لهذه المعاني إذ رمز لنفسه بأنه مثل (الشمس) التي ترمز لصفات: الخير، الحقيقة/ النور، القوة، الجمال.[4] ومعانيهم هذه وصفاتهم هي التي تجعلهم لا يقدرونه حقيقة قدره، ولا يستطيع هو نفسه أن يغيرهم فيجعلهم مثله. وقد دفعه ذلك للابتعاد عنهم، فقد وصل لنتيجة مفادها:

فَضْلُ الأقاربِ برّهُم وحـُنـوّهُـم فـإذا جَــفُـوني فالأباعدُ أرْفَـقُ
أتظنني أرْجو عواطِـفَ ودّهــم إنّي إذاً عبدُ المطــامعِ أخْـرَقُ
بيني وبينهمُ هِنـــاتٌ في الحَشا منها ندوبٌ ما بَقِيتُ ومَا بَقُـوا[5]

---

[1] ابن منقذ، أسامة بن مرشد، الديوان، ط1، دار صادر، بيروت، 1996، ص128

[2] ابن منقذ، الديوان، ص 128.

[3] ابن منظور، محمد بن مكرم (1414هـ)، لسان العرب، تحقيق: اليازجي وآخرون، ط3، ج15، ص59-60، دار صادر، بيروت. (مادة: عشا).

[4] سيرنج، فيليب، (1992م)، الرموز في الفن والأديان والحياة، ترجمة: عبد الهادي عباس، دار دمشق، دمشق، 1992م، ص335-337-370

[5] ابن منقذ، الديوان، ص128.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والإبتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2025

هذه النتيجة التي توصل إليها الشاعر تكمن بافتراض أخلاق وسلوكيات البر والحنو[1] التي يفترض أن تصدر من الأقارب، فإن لم يفعلوا ففراقهم أفضل للإنسان، مؤكدا لوالده أنه لا ينتظر منهم مبادلته العواطف والسلوكيات الفاضلة، وذلك لتوصله لنتيجة بأنهم غير قادرين على امتلاكها، واستحالة أن يعلمهم هو إياها، وإن بقاءه ليصلوه بما لا يملكوه هو مجرد حماقة، خاصة وأنهم قد تركوا له جروحا لا تبرى جراء هذه المعاملة التي لقيها، مع إدراكه العميق بأنه هو أيضا ترك لهم ندوبا بسبب أخلاقه الحميدة.

هذه المعاني تتوافق مع دلالات ضمنية لقافية هذه القصيدة، فاختيار الشاعر لقافية بحرف القاف (ق) قد أعطت للقصيدة خصائص هذا الحرف، فصفة نطقه تتسم بالشَّدة، ودلالاته تشير إلى القطع، والقوة، والصلابة[2]، وهي دلالات وجدت في القصيدة؛ إذ قرر الشاعر أن ينقطع/ ينفصل عن أهله لما لقيه من عمه وأبناء عمومته من معاملة سيئة، وهو يتخذ هذا القرار بموقف قوي يعبر فيه عن قوة صفاته التي حسدوه عليها، ولا يبدو ضعيفا حتى في شكواه لأبيه لما لقيه ويلقاه منهم، بل إن هذه الشكوى قد عبرت عن إيقاع غاضب تجاههم.

إلا أن هذا الغضب الذي يعيشه الشاعر سرعان ما انكسر عندما وصله عتاب من أبيه، ولوم له على فراقه لقومه وأهله، وهذا ما يتضح من بداية هذه القصيدة التي جاء مطلعها:

ماذا يروعُكَ مِنْ وَجْدي ومن قَلَقـيْ أمْ ما يَريـبُـكَ من أجفـانيَ الدُّفــقِ
هـَناكَ بُرؤُكَ من دائي ومن سَقَمي ونومُ جفنيكَ عن همّي وعن أرقي[3]

يعبر الشاعر هنا عن خيبة كبيرة بأن شكواه لم تصل إلى قلب أبيه وحسب، ولكنه أيضًا أنه قد سمع لقول الوشاة في ابنه الذي أوغروا صدره عليه، وذلك عندما جعلوا الابن الشاعر لا يمتلك أي مشاعر شوق أو محبة لأبيه ولأهله، ولهذا فالشاعر يخاطب والده متسائلا قائلا:

إيهًا بِحَقّكَ مجدَ الدين تعلــمُ أنّ الصبْرَ عنكَ أو السّلْوانَ من خُلُقي
أو انني بَعْدَ بُعْدي عنْكَ مُغْتبطٌ بالعيشِ إنّي به لا تُكْذَبنّ شـَقــي
يا ويحَ قَلْبي من شـوقٍ يُقَـلْقِـلُـهُ إلى لِقائِكَ ماذا مِنْ نـواكَ لَــقـِي[4]

يؤكد الشاعر لأبيه محبته له، وأن فيه من الأشواق إليه، والحزن عليه ما يؤكد هذه المحبة، ويزداد الانكسار عند الشاعر بقرب الواشين من أبيه، وتمكنهم من تغيير رأيه بابنه وهو ما يعبر عنه قائلا:

---

[1] الحنو: الشفقة والعاطفة. ابن منظور، لسان العرب، ج14، ص 206.
[2] عباس، حسن، خصائص الحروف في اللغة العربية: دراسة، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1998م، ص144-146
[3] ابن منقذ، الديوان، ص 88.
[4] ابن منقذ، الديوان، ص 129.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والإبتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2025

وأنّ قلْبَكَ قدْ رانَتْ عليهِ منَ الـ واشينَ حتى غَدَوتُ وسوءَ الشكّ في نَسَقِ
بهم تباريحُ أشواقي إليكَ ومـا أجـنّ مـنْ زَفـَراتٍ بالجَـوى نُـطُـقِ
أما كفاهمُ نوى داري وبُعْدُكَ عنْ عيني وفُـرْقَةُ إخوانِ الصّبا الصُّـدُقِ
وأنّني كلّ يومٍ قُـطْـبُ معركـةٍ دريئةُ السّـمـرِ والهـنديّـةِ الذُّلـقِ[1]

هذه القصيدة وإن جاءت على قافية حرف القاف (ق) إلا أن حركة الكسر للقاف قد جاءت مؤكدة على معاني الانكسار التي عكستها الكثير من الكلمات مثل: (وجدي/ قلقي/ دائي/ سقمي/ أرقي/ أشواقي) التي اختتمت بصوت الإمالة الياء (ي) الأكثر قوة في إمالته ودلالة انكساره من حركة الكسر، وهذا الانكسار يرتبط بمواضيع مترابطة تتآلف منها أجزاء القصيدة: أولا: عدم دخول شكوى الشاعر لقلب أبيه. ثانيا: الحزن الشديد على فراق أبيه وأهله وتعذبه في هذا المنفى الاختياري، حيث إنه يتذكرهم حتى خلال الحروب التي يخوضها مع عماد الدين زنكي. وثالثا قرب الواشين من أبيه وتصديق الأخير لهم، على الرغم من أن هذا رحيله إلى هذا المنفى، والابتعاد عن جوار أبيه قد كان بسبب هؤلاء الوشاة تحديدا الذين لم يكتفوا بإبعاده عن وطنه، وإنما أيضا أوغروا صدر الأب على الابن المنفي والمغترب.

2. الصورة الإيجابية: الشوق والغربة والرثاء والعتاب:

لقد جاءت معظم القصائد في التشوق والعتاب على الأهل عند أسامة بن منقذ موجهة في الأساس لأسرته، وهذا لا يعني خلوها من عتاب موجه لعمه وأبناء عمومته، أو لأصدقائه ورفاقه، وبعض الأمراء ورجالات الحكم في عصره ممن ارتبط بهم بعلاقات صداقة. وسيركز هذا البحث على الأشعار التي قالها في أقاربه، أما موضوع العتاب والتشوق للأصدقاء فهو ضمن مجال آخر يعرف بالإخوانيات.

لقد كانت بداية هذه القصائد منذ اغترابه بحياة والده، وقد كان الأب هو موضوع هذه القصائد، كموضوع لتشوق الشاعر بشكل رئيسي، فمن ذلك قوله:

أعْذَبْتَ لي من جودِ كفّكَ مَورِدي فصفا وأمْرَع من نَداكَ ربيعي
وبكَ اعتليتُ وطُلْتُ من ساميتُه فخرًا بمجدِكَ لا بحُسْنِ صَنيعي
وقضى بِبُعْدي عنك دهرٌ جائرٌ وإلى جنابِكَ إنْ سلمتُ رجوعي[2]

يبدأ الشاعر هنا تشوقه لأبيه بمدحه بصفاته الأبوية، فتربيته وإكرامه لابنه قد جعلته مزهرا بين الناس، متسما بصفات حسنة، وما حققه من منزلة عند الأمير زنكي وغيره لا يرجعها الشاعر لنفسه، وإنما لأبيه الذي أورثه هذه الصفات، وما يعرف عنه بين الأوساط الحاكمة آنذاك من فروسية وأدب وعلم جعلته مقدرا بين الناس، وهي صفات ورثها أسامة وتعلمها منه، ثم إنه يشكو لأبيه حكم الدهر بفراقهم، مؤكدا له إن كتب الزمان له العودة،

[1] ابن منقذ، المصدر نفسه، ص 129.
[2] ابن منقذ، الديوان، ص 124.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والإبتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2025

فسيعود ليكون الالتزام بقربه، في إشارة إلى ما فيه من شوق إلى والده، وهذا ما تؤكده قصائده الأخرى، فمنها قوله:

أخلو بأفْكاري لتدنيَ شَخْصَهُ خُدَعُ المُنى من قلبيَ الخفّاقِ
وأُكرر التسآلَ عنْهُ لجاهـــلٍ علمي وتلْكَ عُلالةُ المشـتاقِ
فإذا تَسامَحَ لي الزمان بقُربه منْ بعْدِ بَيْنـــيْ فُرقةٍ وشقـاقِ
باثَثْتهُ وَجْدي وقُلتُ يرقُّ لي فأجـابَني بالصّمْت والإطْراقِ
ويلومُني فيهِ رفيقٌ يـدّعـــي نُصْحي أضاع النّصْحُ حق رفاقي
إيهًا كلانا يَشْتكي حَرّ الهَوى لَكِنْ جَهلتَ تبايُـنَ العُشّــاقِ[1]

إن الشاعر يصف ما فيه من شوق من خلال تصويره لما يحدث له جراء هذا الشعور، فهو يخلو بنفسه وأفكاره ليرافق طيف أبيه في فكره، وليحضر أمامه، وهذا الفعل هو كما يعرف هو نفسه عملية خداع للنفس لتخفف من الشوق الذي يستعر في قلبه، إذ يمنيها بلقاء أبيه ولو في الخيال، وهذا من عظيم محبته لوالده، بل إنه يسأل الناس القادمين والعابرين عنه حتى لو كانوا لا يعرفونه ولا يعرفون أخباره، فقط ليعلل نفسه ويطمئنها أن والده بخير، وهو يصف هذا الفعل على أنه من الأفعال التي تهدئ من ريب وتخوفات الإنسان المشتاق، وهو يتمنى أن يجتمع بأبيه وأن يبث له مشاعر الشوق والمحبة، ويصف له لوم بعض الأصحاب له على هذا التشوق لأبيه الذي لا تدل مكاتباته لابنه على حمله لهذه المشاعر، وذلك في إحالة ضمنية للشاعر على بعض كتب الملامة والعتاب التي أرسلها له والده بتحريض من الوشاة والتي ذكرها الباحث سابقا، ولكن الشاعر لا يستمع لهؤلاء الأصحاب وإنما يبرر لهم موقف أبيه بأن له طريقة مغايرة في الحب والشوق لابنه. وقد أكد الأب لابنه على تشوقه له في رد بقصيدة يقول في مطلعها:

أتظن أني بَعْد بُعْدِكَ بـاقي أجْزي عن الأشواقِ بالأشواقِ

ومنها قوله:

لمْ أسْتَكِنْ أَبَـدًا لخَطْـبٍ نــازلٍ إلا لبُـعْـدِكَ فهو غيرُ مُطـــاقِ
فإذا أطَعْتُ الوجْدَ فيكَ أطاعني قَلْبي ويُبدي إنْ عصَيتُ شقاقي
فإذا ذكَرْتُـك خِـلْتُ أنّيَ شاربٌ ثَمِلٌ سَقاه من المُدامَـةِ ساقــي[2]

تعبر هذه القصيدة عن انفجار الأب بمشاعره التي لا توصف بالكلمات، إن هذه المشاعر يصورها الأب الشاعر بصور يستشف منها لوعته وأشواقه لابنه، فمنذ بدايتها يصف الأب بتساؤل استنكاري أنه هل هو حي أصلا ليجازي أشواق ابنه بالأشواق؟! إن هذا ما تدل عليه كلمة (باقي) التي لم تحذف ياؤها وتعوض بتنوين الكسر، وإنما أبقاها لتشير إلى مدى سوء حالته حتى إنه يستنكر إن كان (باقيا على قيد الحياة). بل إنه يصور لابنه صعوبة حدث فراقه، فهو أشد خطب مر عليه في حياته التي قضاها في السياسة والحروب ومشاهدة

[1] ابن منقذ، الديوان، ص 132.
[2] ابن منقذ، الديوان، ص 133.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والإبتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2025

الأهوال، وقلبه لا يطاوعه في تخفيف هذه المشاعر، وإنما يعصيه ويتمرد عليه، فهذه المشاعر قد خرجت عن سيطرته، فتجعله كالمخمور والسكران، إشارة لما لأسامة من مكانة في قلبه.

ولم يكن الأب وحده موضوع تشوق أسامة وعتابه، فجراء تقلب الزمان به وبأخوته الذين نزحوا مع أسامة بعد وفاة أبيهم جراء انقلاب عمهم وأولاده عليهم جميعا، فتفرقوا في البلاد، ووقع بعضهم في الأسر، فجرت بينهم مكاتبات، فاض بعضها بالكثير من المشاعر التي تعبر عن رابطة الأخوة، فمنها كتاب إلى أحد أخوته جاء فيه:

يا مَنْ هواهُ عَلى التّنـا ئي والتّداني في ازديـــادِ
أصْبَحْتُ مـغتربًا لبُعْـــ ـدِكَ بَيْنَ أهْلي في بلادي
مُسْتوحِشًا مع كثرة الـ ـخُلّان وحْشَةَ ذي انْـفرادِ
وأقلّ ما لاقَيْـتُ بَعْـــ ـدَكَ من تباريح الـبِعـــادِ
شوقٌ إلَيـكَ أبـــاحَ فيـ ـضَ مَدامعي وحمى رُقادي[1]

يؤكد الشاعر هنا لأخيه المكانة التي يحظى بها في قلبه، حتى أنها تزداد سواء أكان قريبا أو بعيدا، بل إنه يشعر بالغربة جراء بعد أخيه عنه رغم أن أكثر أخوته وأبنائه حوله، وكثرة الأصدقاء الذين يجالسهم لم تلهه عن شوقه له، بل إنه يصف لأخيه أقل ما يلقى من بعده عنه، وهو الشوق الذي يجري دموعه، ويجعله لا ينام الليل كأن به حمى، وفي هذه الصورة في البيت الأخير يشير بشكل ضمني إلى عرض من أعراض الحمى، فهي تجعل الإنسان لا ينام بصورة مطمئنة، إذ ينام الإنسان وهو يتقلب كأنه شبه واعٍ لما حوله، مع حدوث هلوسات مختلفة، فكأنه يريد أن يعبر لأخيه عن هذا الأثر فهو يتقلب ويفكر به ويشبه هذه الأفكار بالهلوسات خلال الحمى.

وفي قصيدة أخرى يصف ابن منقذ كتابا جاءه من أحد أخوته يعاتبه فيه، ويبدو أن هذا العتاب كان عتابًا على أمر ما جرى بينهما لا نعرفه، ولكن هذا العتاب على ما يبدو قد جاء فيه توكيد على المحبة بين الأخوين وهو ما يشير إليه رد أسامة في قوله :

فأهـلًا بعَـتْـبٍ تَسْتَرِيحُ بِبَثّـهِ ويؤْمـنُنـي أن يستمر بك الـجِفْـــدُ
لقد راقَ في قلبي ولذّ سماعُهُ بِسَمْعي (فزِدْني من حديثك يا سعدُ)[2]

إن الشاعر يشعر بلذة بعتاب أخيه، فهذا العتاب على ما يبدو قد جاء فيه ذكر لمحبة الأخ لأخيه أسامة، ويلاحظ أن الشاعر يعرف أن مفهوم العتاب هو دليل على المحبة، فالعتاب لا يصدر إلا لمكانة الشخص المعاتَب من المعاتِب، كما أن هذا العتاب من الأخ قد جعل أسامة يشعر بالطمأنينة تجاه أخيه، فالعتاب يزيل الحقد بين المتحابين، ولا يبقي في قلوبهم شيئا إن تفهم كلاهما الأمر بشكل صحيح، وفهم أسباب كل طرف في

[1] ابن منقذ، الديوان، ص117.
[2] ابن منقذ، الديوان، ص118.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والإبتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2025

تصرفه، واعترف المخطيء بخطئه، والشاعر قد طرب بعتاب أخيه له على ما يبدو لا لما في هذا العتاب من محبة وبث للمشاعر وحسب، بل لِما أثاره في قلب الشاعر فتمثل بعجز البيت الأخير بقول عباس بن الأحنف[1] تعبيرا عن إعجابه بكلام أخيه:

وحدثتني يا سعْدُ عنها فزِدْتَني جُنونا فزِدْني من حَديثكَ يا سعدُ[2]

ولم يكن العتاب والشوق موجها بين الأب وابنه والأخ وأخيه فحسب، بل حضر أيضا الأبناء في شعر ابن منقذ، وذلك على نحو قوله:

مواصلتي كُتُبـي إلـيـــــكَ تَـزيدُني إليكَ اشتياقًا بل عليكَ تأسُفـا
ولي أسوة في الناس لو نفع الأُسى فمن قبلنا يَعقوبُ فارق يوسُفا
ولكنّ نفســي قد تملّكَها الأســـــى وقلبي إذا سكّنتُهُ بالأُسى هفا
وما أحْسَبُ الأيامَ تَقْنَـعُ بالنّـــــوى ولا أنّ صَرْفَ الدّهرِ بالفُرقة اشتفى[3]

إن الشاعر يخبر ابنه أن كثرة كتبه إليه ليست من الشوق وحسب، بل إنه قد وصل لمرحلة أعلى من الشوق هي التأسف على فراق ابنه، ولم يستطع أن يتخذ من نبي الله يعقوب وابنه يوسف عليهما السلام أسوة له بالتأسي والصبر على هذا الفراق، فهو محتاج لابنه ومواساته، ويصل الشاعر إلى حكم بأن الزمان لا يقتنع باكتفاء الشاعر من فراق أحبابه والبعد عنهم، بل يزيده من هذه الأوجاع والآلام التي صارت بمثابة حكم عليه.

ولم تكن أشعاره مقتصرة على هؤلاء وإنما أيضا قد خاطب بها بعض أبناء أخوته، ففي قصيدة لابن أخيه:

أيا غائبا يُدْنيه شوقي على النوى لأنْتَ إلى قلبي من الفِكْرِ أقْرَبُ[4]

بل إنه وجراء الزمن وتطاول الأيام عليه أخذ الشاعر يشتاق لأهله وأرضه حتى أولئك الذين أبعدوه هو وأخوته، فها هو يشتاق إليهم بعتاب مرير قائلا:

أأحبابنا هلّا سبقتــُم بوصْلِنــا صُروفَ الليالي قبل أن نتفرّقا
تشاغلتُمُ بالهجرِ والوصلُ ممكنٌ وليس إلينا في الحوادث مرْتقى
كأنّا أخذْنا من صُروفِ زمانِنــا أمانًا ومن جَـورِ الحوادِثِ موثِقا[5]

---

[1] العباس بن الأحنف: بن الأسود الحنفي، من قبيلة حنيفة العربية، شاعر عباسي صاحب غزل رقيق، ويعد من أغزل شعراء العرب، ولد في البصرة، ونشأ في بغداد، وكان كل شعره في موضوع الغزل والتشبيب، توفي سنة 192هـ/808م. الزركلي، الاعلام، ج3/ ص259.

[2] العباس بن الأحنف، الديوان، تحقيق: عاتكة الخزرجي، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1954م، ص98.

[3] ابن منقذ، الديوان، ص124-125.

[4] ابن منقذ، الديوان، ص 111.

[5] ابن منقذ، الديوان، ص 130.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والإبتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2025

إن الشاعر يمزج شوقه لهم بعتابه الذي سيطر على الإيقاع في القصيدة وعلى معانيها، فهو يعاتبهم على عدم وصلهم له رغم أن ذلك ممكن، كما يعاتبهم باختيارهم خيار الاستمرار على الهجر له، وهذا الشوق قد زادته مصائب وقعت على الشاعر واسرته، فعندما أسر أخوه من قبل الفرنجة خلال خروجهم من مصر، أرسل إلى ابن عمه أمير شيزر قصيدة يرجوه فيها بالتدخل لإنقاذه، فمنها:

هذا ابنُ عمّكَ في أسْرِ الفِرَنج لهُ حولٌ تجرّم في الأغلالِ والظُّلَمِ
يدعوكَ لا بلْ أنا الداعي نداك لهُ يا خير من علِقَتْهُ كفٌّ معتصمِ
وأنت أكرمُ من تَثْنيه عاطفةُ الـــ قُرْبى ويرجوه للجلّى ذوو الرّحـــمِ

إلا أن هذه القصيدة لم تحرك ابن عمه ولا أقاربه في شيزر، ولم يساعدوه بافتكاك أخيه من الأسر.[1] ولكن الشاعر بسبب غربته وبعده عنهم كان فلا يزال يكنُّ لأهله وأقاربه المودة رغم مما فعلوه بحقه، ورغم عدم مساعدته له، وقد كانت هذه المشاعر تراوده دوما، إلا أنها تنفجر بشكل حزين يعبر فيه عن حب شامل وحنين وتغرب، وبهذا يقول:

أينَ السّرورُ من المُرَوَّعِ بالنّوى أبدًا فلا وَطَنٌ ولا خُلّانُ
عِيدُ البَريّةِ موسِـمٌ لعَويلِـــهِ وسرورهمْ فيه له أحــزانُ
وإذا رأى الشّمْلَ الجميعَ تزاحمتْ في قلبِهِ الأمواهُ والنيـــرانُ[2]

فالشاعر قد راعه الزمان دوما فجعله بلا أهل أو وطن، يتقلب في البلاد والأسفار، ويزيد هذا الشعور بالغربة رؤيته للناس في العيد وهم مجتمعون وفرحون بالعيد، وهو وحيد، في غربة أهله ووطنه. وقد زاد الطين بلة موت أهله وأقاربه بزلزال شيزر الذي ترك أثرا عظيما في قلبه، فقال فيهم قصائد رثاء عبرت عن حبه لهم بشكل علني، فمنها قوله:

حَيّا رُبوعَكَ مِنْ رُبًى وَمَنـازِلِ ساري الغمامِ بِكُلّ هامٍ هامِلِ
وسَقَتْكِ يا دار الهَوَى بَعْدَ النّوى وَطْفَاءَ تَسْفَحُ بالهُتونِ الهاطِلِ
حَتّى تُروِّضَ كُلَّ ماحٍ ماحلٌ عافٍ وتَروي كُلّ ذاوٍ ذابـِلِ
أبكيكِ أم أبكي زماني فيكِ أمْ أهليكِ أمْ شَرْخُ الشّبابِ الراحِلِ
ما قدْرُ دَمْعي أن يُقسِّمَهُ الأسى والوجـدُ بَينَ أحِبـَّةٍ ومَنازِلِ
أنْفَقتهُ سرَفًا وهـا أنا ماثِلٌ في ماحلٍ أبْكي بِجِفْنٍ ماحـلِ[3]

---

[1] ابن منقذ، الديوان، ص 149.

[2] ابن منقذ، الديوان، ص 104.

[3] ابن منقذ، الديوان، ص 354-355.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والإبتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2025

إن هذه القصيدة التي تميزت بمطلعها حيث يحيي الشاعر أطلال مدينة أهله، ولكنه محتار هل يبكي المكان، أو الزمان الماضي الذي قضاه فيه، أو أهله الذين كانوا يسكنونه وماتوا بسبب الكارثة، أو شبابه الذي ذهب بهذا المصاب، فدمعه مقسم بين بكاء الأهل والوطن، وهو أمر يفوق طاقته، وهو ما يعكس ندبا لهم على عادة العرب، ولكنه سرعان ما يدخل في تأبينهم ذاكرا محاسنهم المرتبطة بصفات الفروسية والكرم والنجدة و القيادة قائلا:

مِنْ كُلّ مَكْروهِ اللّقاءِ مُنازل رَحِبِ الفناءِ لطارقٍ أو نازِلِ
مُتَمَنِعٌ صَعْبٌ علـى أعْدائِهِ سَهْلُ المَقَادَةِ للخَليلِ الواصلِ[1]

وهي صفات ترتبط بالفكر والشعر العربي بالمديح منذ العصر الجاهلي، ولكن الشاعر يغادر التأبين ليعود للندب، مستعينا بغدر الدنيا، وتقلبها، وهي صفة تحقيرية، بالمقارنة بصفات أهله، أي أن الشاعر في مقابل مديح أهله في المرثية، يذم الدنيا وفعلها بهم وبه:

عَزّوا على الدُّنيا وَخالفَ فعلهمُ أفعالها فبغتهـم بغوائلِ
حتّى إذا اغْتالتْهُمُ بخطوبِها ورَمَتْهمُ بحوادثٍ وزلازِلِ
دَرَسَتْ مَنازِلُهُمُ وأوْحشَ مِنهُمُ مأنوسُ أنديةٍ وعزّ محافلِ
وآهًا لهُم مِنْ عالِمٍ ومـعالم ومُمَنَّعاتُ عقائلٍ ومَعاقِلِ

كانوا شَجًى في صَدْرِ كُلّ مُعاندٍ وَقَذًى يَجولُ بعينِ كُلّ مُحاولِ[2]

إن هذه العودة بالندب قد تجلت من خلال الاستعانة بأفعال ماضية، وبألفاظ تتأسف عليهم وتبكيهم (واها) وهي ألفاظ لا تعبر عن التأسف عليهم لما يحملونه من صفات حميدة فحسب؛ وإنما تعبر عن حالة الحزن الشديدة التي يمر بها الشاعر جراء موتهم الذي جعله كما يصف هو:

وَبَقِيتُ بَعْدَهُمُ حَلِيفُ كآبــةٍ مَسْتورَةٍ بِتَجَمُّلٍ وتَـحاملِ
سعدوا براحتهم وها أنا بَعْدَهُم في شِقْوةٍ تُضنـي وهَمٍّ داخِلِ
فاعْجَبْ لـشِقْوةِ مُتْعبٍ بمقامِهِ مِنْ بَعْدِ أُسْرَتِهِ وراحةِ راحلِ

إن الشاعر كما يصف قابع بحالات من (الكآبة/ الشقوة/ الضنى/ الهم) جراء فقدانه لأهله وأصحابه، وهو يمهد للنوع الثالث من الرثاء (العزاء) من خلال وصف مقاومته لهذه الأشكال من الحزن وهي (التجمل/ التحامل) ، التي إذا ما قورنت بموتهم جعلت من موتهم راحة، وهو هنا أيضا يشير بشكل ضمني إلى فكرة راحة الإنسان من هذه الحياة بالموت، وهي فكرة تسود في العصور والفترات الصعبة على الناس، فيصير الموت (سعادة/ راحة) ، وهذا ما يؤكده فعل الأمر الطالب من المتلقي التعجب والتأمل (فاعجب)، وهو تعجب لا يدل فقط على

[1] ابن منقذ، الديوان، ص 355.
[2] ابن منقذ، الديوان، ص 355.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والإبتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2025

حالة الشاعر ومصابه، وإنما تعجب من زمانه الذي يجعل المرء يرتاح بالموت، ويشقى بالحياة، ولكنه سرعان ما يعزي نفسه خاتما القصيدة:

دَعْ ذا فَأَنْتَ على الحوادثِ مَرْوَةٌ تَلْقَى الرّزايا عَالِمًا كالجاهلِ
واصْبِرْ فَما فيما أصابَكَ وَصْمَةٌ كلّ الوَرَى غَرَضٌ لسهْمٍ النابِلِ[1]

يحاول الشاعر هنا أن يواسي نفسه بأن الموت هو مصير جميع البشر، ومصيبته ليست بوصمة عار عليه بما أن الناس جميعا معرضون للموت بأسباب مختلفة.

إن قصيدة ابن منقذ بإيقاعها السريع قد عكست مشاعره المنكسرة، ورغبته بندب أهله وبكائهم وهو واقف على أطلال ديارهم، وتأبينهم بذكر محاسنهم، ومحاول تعزية نفسه بشكل سريع، يثير لدى متلقي النص شعورا بأن هذه التعزية حقيقة لا تواسي الشاعر بمصيبته، وتبدو القصيدة بشكلها وصورها هذه خالية من الصنعة البديعية التي سادت في هذا العصر، [وذلك لأنها ضمن رثاء الأقارب، حيث صدق مشاعر الحزن والأسى التي تبعد الشاعر عن التفكير بإظهار البراعة الأدبية والتفنن في صناعة الشعر].[2]

الخاتمة

- يعد أسامة بن منقذ من أبرز شعراء العصر الزنكي والأيوبي، فقد كان عصرا متميزا بروحه الفروسية والجهادية لمواجهة الصليبيين، وقد تشرّب ابن منقذ قيم الفروسية والإسلام منذ ولادته، فقد ولد لعائلة عربية معروفة بفروسيتها وعلمها، وترعرع على يد والده الذي كان فارسا مجاهدا للاحتلال الصليبي، بالإضافة لعلمه الديني، وزهده وتقاه.
- انعكست أحداث هجران وابتعاد أسامة بن منقذ على شعره، وقد ظهر ذلك جليا في غير موضع من القصائد كما أسلف الباحث، ومن ذلك حديثه عما لقيه من ظلم على يد أقاربه إلا أنه لم يهجهم، واكتفى بالغضب، والشكوى، والعتاب، ولم يكرههم فكانت قصائده حنينا، وحبا، وفي النهاية رثاءً صادقًا لهم بعد مقتلهم.
- لقد كانت وتيرة الشعر عند أسامة بن منقذ متغيرة، إذ نجد قصائد الغضب في بداية توتر العلاقة بين أسامة وآل بيته تعبر عن تحديه لهم، ولكن سرعان ما أخذ الشاعر يحن لهم ولبلاده، ومن ثم جاءت لتعبر عن انكسار بعد مقتلهم، رغم ما تسببوا فيه له من ألم وحزن وخذلان.
- لقد كان لحالة التأثر بموت أقاربه وتهدم مدينته أثر واضح على فكر الشاعر الذي انعكس في شعره، فنجده يتجه نحو الفكر الفلسفي ويجادل ثنائية الموت والحياة.
- كانت لغة الشّعر عند أسامة بن منقذ تخدم أهدافه المرجوة، فقد كان يوظف العتاب في خطابٍ شعري محبب، ولغة شعرية إنسانية، ليحسّن العلاقة مع أخيه بعد افتراقه عنه.
- استطاع الشّاعر أن يوظف في شعره الخيال الخلاّق كان يلبي حاجته التّواقة لرؤية والده الميت، فجعل من شعره ملاذا لخلق بيئةٍ يلتقي فيها مع أبيه.

---

[1] ابن منقذ، الديوان، ص 356.

[2] الهيب، أحمد فوزي، الحركة الشعرية في زمن المماليك في حلب الشهباء، ط1،مؤسسة الرسالة، بيروت، 1986، ص277.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والإبتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2025

المصادر والمراجع

- ابن الأثير، علي بن محمد، الكامل في التاريخ، تح: عمر بن عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، 1997م.
- الأصبهاني، عماد الدين محمد بن محمد، خريدة القصر في محاسن أهل العصر: قسم شعراء أهل الشام،، تح: شكري فيصل، الدار الهاشمية، دمشق، 1955م.
- الأصفهاني، عماد الدين محمد بن محمد، خريدة القصر وجريدة العصر: قسم شعراء الشام، تح: شكري فيصل، ج1، المطبعة الهاشمية، دمشق، 1955م
- الآلوسي، جمال الدين، أسامة بن منقذ بطل الحروب الصليبية، مطبعة أسعد، بغداد، 1967م
- بدوي، أحمد أحمد، أسامة بن منقذ وشعره، مجلة الرسالة، مصر، عدد 885، 1950م
- تريعة، أشواق، تجليات الحزن في شعر أسامة بن منقذ، رسالة ماجستير، جامعة بسكرة، الجزائر، 2018م
- حسام الدين، كريم زكي، اللغة والثقافة: دراسة أنثرولغوية لألفاظ وعلاقات القرابة في الثقافة العربية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2010م.
- حسين، محمد محمد، الهجاء والهجاءون في الجاهلية، مكتبة الآداب بالجماميز، القاهرة، 1947م.
- الحفني، عبد المنعم، موسوعة الفرق والمذاهب والجماعات الإسلامية، ط، دار الرشاد الإسلامية، القاهرة، 1993م.
- الحموي، ياقوت بن عبد الله، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1993م
- الحموي، ياقوت بن عبد الله، معجم البلدان، تح: إحسان عباس، ط3، دار صادر، بيروت، د.ت
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، تح: خليل شحادة وسهيل زكار، دار الفكر، بيروت، 1981م.
- ابن خلكان، شمس الدين أحمد بن محمد، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1996م.
- الدليمي، نهى محمد، الحياة والموت في صدر الإسلام، دار الخليج، عمان، 2020م
- الذهبي، محمد بن أحمد، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2003م
- الذهبي، محمد بن أحمد، سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرون، ط3، دار الرسالة، بيروت، 1985م
- زامباور، إدوارد.ف، معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، دار الرائد العربي، بيروت، 1980م.
- الزركلي، خير الدين، الأعلام، ط15، دار العلم للملايين، بيروت، 2002م
- سلام، محمد زغلول، الأدب في العصر الأيوبي، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1990م

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والإبتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2025

- سليمان، رولا، شعر أسامة بن منقذ دلالاته وخصائصه الفنية، رسالة ماجستير، جامعة دمشق، سوريا، 2000م
- سيرنج، فيليب، الرموز في الفن والأديان والحياة، ترجمة: عبد الهادي عباس، دار دمشق، دمشق، 1992م.
- أبو شامة، عبد الرحمن بن إسماعيل، الروضتين في أخبار الدولتين، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1997م.
- الشيخ، محمد محمد مرسي، الإمارات العربية في بلاد الشام في القرنين 11-12م، ط1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1980م.
- الصانع، أمجد ضيف الله، شعر أسامة بن منقذ دراسة أسلوبية، رسالة ماجستير، جامعة مؤتة، الأردن، 2001م.
- الصفدي، خليل بن أيبك، الوافي بالوفيات، تح: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحيار التراث العربي، بيروت، 2000م
- العباس بن الأحنف، الديوان، تحقيق: عاتكة الخزرجي، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1954م
- عباس، حسن، خصائص الحروف في اللغة العربية: دراسة، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1998م.
- ابن العديم، كمال الدين عمر بن أحمد، بغية الطلب في تاريخ حلب، تح: سهيل زكار، دار الفكر، دمشق، 1988م.
- ابن عساكر، علي بن الحسن، تاريخ مدينة دمشق: وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل أو اجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها، تحقيق: عمر بن غرامة العمروي، دار الفكر، بيروت، 1995م
- الغامدي، مسفر بن سالم عريج، الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي قبل قيام الدول الأيوبية في مصر، ط1، دار المطبوعات الجديدة، جدة – السعودية، 1986م
- غانم، حامد زيدان، دراسات في تاريخ العالم الإسلامي في العصور الوسطى، المعهد العالي للدراسات الإسلامية، 2005م
- المطوي، محمد العروسي، الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1982م.
- مفتاح، محمد، مفاهيم موسعة لنظرية شعرية: اللغة –الموسيقى– الحركة، دار الفكر العربي، بيروت، 2010م.
- المقريزي، أحمد بن علي، المقفى الكبير، تحقيق: محمد اليعلاوي، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2006م
- ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، تحقيق: اليازجي وآخرون، ط3، دار صادر، بيروت، 1414هـ (مادة: عشا).
- ابن منقذ، أسامة بن مرشد، الاعتبار، تحقيق: فيليب حتي، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، د. ت
- ابن منقذ، أسامة بن مرشد، الديوان، ط1، دار صادر، بيروت، 1996م.
- الهيب، أحمد فوزي، الحركة الشعرية في زمن المماليك في حلب الشهباء، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1986م.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والإبتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2025